البُعد الحجاجيّ في كتاب " الهفوات النَّادرة" لغرس النعمة

د. عبداللطيف بن محمد الجفن
أستاذ النقد والبلاغة المشارك في قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلّيّة اللغات والعلوم الإنسانية
جامعة القصيم، المملكة العربيّة السعوديّة
ajfn@qu.edu.sa

تاريخ تسلم البحث: ٢٥/ ١٢/ ٢٠٢٣م **تاريخ قبول البحث**: ١٠/ ١/ ٢٠٢٤م

Doi: 10.52840/1965-011-001-021

المُلخَّص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة البعد الحجاجيّ في خطاب سرديّ قديم، وهو كتاب (الهفوات النادرة)، ودراسة سجلّاته، وتتبّع وسائله؛ للوقوف على دورها في تمكين المتكلّم من التأثير في المتلقّي أو إقناعه بما يعرض عليه من أطروحات، أو الزيادة في درجة ذلك الإقناع، دون أن يجهر بذلك.

ويتكوّن البحث من محوريْن رئيسيّيْن: يدرس المحور الأوّل البعد الحجاجيّ في خطاب الشخصيّات، ويهدف إلى تتبّع مواضعه، وكشف طرائقه، وبيان مفعولها الإقناعيّ. ويدرس المحور الثاني البعد الحجاجيّ في خطاب الراوي، ويقوم على إبراز وسائله، وبيان دوره في إقناع المروي له. وسيعتمد البحث في منهجه التحليلي على مقولات الحجاج الخِطابيّ، ومنطلقات بلاغة الحجاج، سواء في البلاغة القديمة أو في البلاغة الجديدة.

وتوصّل البحث إلى نتائج عديدة، أبرزها: ملازمة البعد الحجاجيّ للخطاب السرديّ، وتنوّع مظاهره، وأنّ البعد الحجاجيّ قد كان حاضرًا في الخطاب السرديّ القديم.

الكلمات المفتاحيّة: البعد الحجاجيّ، الحجاج الضمنيّ، السرد، خطاب الشخصيّات، خطاب الراوي.

Argumentative Dimension in the book "Al-Hafawat Al-Nadirah" of Ghars Al-Ne'mah

Dr. Abdul-Latif bin Mohammed al-Jafen,

Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Human Sciences, Qassim University, Saudi Arabia

ajfn@qu.edu.sa

Date of Receiving the Research: 25/12/2023 Research Acceptance Date: 10/1/2024

Doi: 10.52840/1965-011-001-021

Abstract:

This research aims to study the argumentative dimension in an ancient narrative discourse, the book: "Al-Hafawat Al-Nadirah", the study of its records and the tracking of its means, to determine its role in enabling the speaker to influence or persuade the recipient of the theses presented to him/her or to increase the degree of such persuasion, without explication.

The research consists of two main themes: the first theme examines the argumentative dimension of characters' discourse, and aims to trace its positions, reveal its methods, and demonstrate its persuasive effect. The second theme examines the argumentative dimension in the narrator's speech, and is centered on highlighting its means and demonstrating its role in convincing the narrated to. The research in its analytical approach relies on the statements of the rhetorical argumentations and the premises of the argumentation' rhetoric, both in the old rhetoric and in the new rhetoric**.**

The research yielded numerous findings, most notably: the concomitant of the argumentative dimension to narrative discourse, the diversity of its manifestations, and that the argumentative dimension was present in the old narrative discourse.

Keywords: The argumentative dimension, the implicit argumentation, the narration, the characters' discourse, the narrator's discourse.

المقدمة:

يعدّ الحجاج ملازمًا لمختلف أنواع الخطابات، خصوصا منها الخطابات القائمة على الاحتمال[1] بما فيها الخطاب الأدبيّ. ويختلف مقدار حضوره فيها من نوع خطابيّ إلى آخر. وتتنوّع وسائل حضوره، فقد يكون حاضرًا عن طريق الحجج بأنواعها المختلفة سواء كانت حججًا شبه منطقيّة أم حججًا مؤسّسة على بنية الواقع، أو حججًا مؤسّسة لبنية الواقع. وقد يكون حاضرًا عن طريق سجّلات اللغة، فتكون الكلمة مشروعًا حجاجيًّا صغيرًا، وتصبح أدوات الربط عوامل أو روابط حجاجيّة تربط بين الحجّة والنتيجة.

وقد يرد الحجاج ظاهرًا مباشرًا في الخطاب، وقد يرد مضمرًا وغير مباشر. ولعلّ ذلك ما دعا بعض الباحثين إلى القول بأنّ الحجاج صار بعدًا من أبعاد الخطاب. وذهب آخرون إلى التمييز بين المقصد الحجاجيّ والبعد الحجاجيّ. فالمقصد الحجاجيّ يكون ظاهرًا في الخطاب، ويرد في أنواع عدّة من الخطابات، مثل: الخطاب القضائيّ، والخطاب الإشهاريّ، وأمّا البعد الحجاجيّ فيكون مضمرًا، ويرد في أنواع أخرى من الخطاب من أبرزها الخطاب الأدبيّ سواء كان تخييليًّا أو مرجعيًّا، وسواء كان سردًا أو شعرًا، وهنا تكمن أهمية الدراسة في الكشف عن البعد الحجاجي المضمر، وأهميته في الخطاب السردي.

وينطوي الخطاب السرديّ على أبعاد حجاجيّة عديدة، شكّلت مشكلة البحث، وتساؤلاته؛ ذلك أنّ هذا النوع من الخطاب، لا يخلو من أطروحة أو أفكار يسعى الكاتب إلى الدفاع عنها، أو حمل القارئ على الاقتناع بها، والتسليم بجدواها. وقد تكون تلك الأبعاد مسألة خلافيّة بين المتلقّين؛ بسبب عدم حضورها المباشر، وهنا تتمثّل تساؤلات البحث في الآتي:

ما القرائن الدالّة على حضور البعد الحجاجيّ في الخطاب السرديّ؟

فيم يتمثّل ذلك البعد الحجاجيّ في الخطاب السرديّ ؟

ما مفعول البعد الحجاجيّ في المتلقّي؟

ولتحقيق الهدف المرجو من البحث، ستجيب الدراسة عن هذه الأسئلة، وما اتّصل بها، انطلاقا من كتاب "الهفوات النادرة" لغرس النعمة. ويعود اختيارنا له إلى سببيْن على الأقلّ: يتعلّق السبب الأوّل بدوران المادّة السرديّة الواردة في كتاب "الهفوات النادرة" على محور غرضيّ واحد، هو "الهفوة النادرة"، ويربط هذا الغرض الكتاب بأطروحة مضمرة واحدة، تقديرها،

(١) أرسطو، فنّ الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي: (ص ١٥١).

إيّاك والهفوات. ويتعلّق السبب الثاني بتنوّع العلامات الدالّة على حضور البعد الحجاجيّ في الكتاب، سواء في خطاب الشخصيّات أو في خطاب الراوي، وهما المحوران اللذان اتّكأ عليهما البحث، في إيضاح كيفيّة تجلّي البعد الحجاجيّ في خطاب الشخصيّات وفي خطاب الراوي. وبيان ذلك على النحو الآتي:

أوّلا: البعد الحجاجيّ في خطاب الشخصيّات.

إنّ الشخصيّات في كتاب "الهفوات النادرة" عديدة ومختلفة؛ بسبب تعدّد الأخبار واختلاف الحكايات. ويمكن تصنيفها حسب معيار المكانة الاجتماعيّة، فنجد ثلاثة أصناف: صنف الطبقة العليا، ويشمل هذا الصنف الشخصيّات ذات المكانة المرموقة في المجتمع كالخلفاء والوزراء والأمراء والقادة، وصنف الطبقة الوسطى، ويشمل الوجهاء والأغنياء وكبار التجّار. وصنف الطبقة الدنيا، ويشمل الموالي والعمّال وضعاف الحال. وكانت بين تلك الشخصيّات تفاعلات قوليّة متنوّعة، وخلافات عدّة. وحرصت كلّ شخصيّة على حمل محاورها على الإذعان لأطروحاتها أو الزيادة في درجة ذلك الإذعان. واختارت أغلب الشخصيّات عدم التصريح بمسعاها الحجاجيّ، وآثرت الحجاج الضمنيّ، ونوّعت طرائقه، فجاء كلامها مليئًا بالأبعاد الحجاجيّة. فما تلك الطرائق الحجاجيّة؟ وفيم تتمثّل حجاجيّتها؟.

١ – صورة الذات: يبني المتكلّم في خطابه صورة لذاته، وهو "يقنع بالأخلاق إذا كان كلامه يُبقي على نحو يجعله خليقًا بالثقة. وهذا الضرب من الإقناع، مثل سائر الضروب، ينبغي أن يحدث عن طريق ما يقوله المتكلّم لا عن طريق ما يظنّه الناس عن خُلقه قبل أن يتكلّم"(٢). ويحرص كلّ الحرص على إبراز وجهه الإيجابيّ، وإخفاء وجهه السلبيّ. ويُبرز من وجهه الإيجابيّ ما يراه خادمًا له في مسعاه الحجاجيّ. ويمكن بيان ذلك انطلاقا من المثالَيْن الآتيَيْن:

– المثال ١: حدّث الحسين بن عياش قال: كان جحظة قد أسنّ. فجئته يوما في مجلس الأدب، والناس عنده، وهو يملي، فلمّا خفّوا قال لي ولآخر كان معي: اجلسا عندي حتى أقعدكما على لُبود، وأطعمكما طباهجة (الكباب، وهو اللحم المشرّح) بكبود، وأسقيكما من معتّقة اليهود، وأبخّركما بعنبر وعود أطيب من النُدود، وأغنّيكما غناء المسدود (مغنّ مشهور)، فقلنا: هذا موضع سجدة"(٣).

(٢) أرسطو، فنّ الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي:(ص ٢٩–٣٠).

(٣) غرس النعمة، الهفوات النادرة، حقّقه وعلّق عليه وقدّم له الدكتور صالح الأشتر:(ص ١٥٧).

– المثال ٢: "قال الحجّاج لعبد الرحمن بن أبي بكرة: ما مالك؟ فقال: لقد ختمت على ألف ألف درهم. ثم علم عبد الرحمن أنّها سقطة قد زلّت من فمه، فتداركها مسرعاً عجلاً، وقال: ولقد أصبحت، وما أملك إلّا خاتمي"(٤).

كان جحظة في المثال الأوّل يعلم أنّه رجل مسنّ، وأنّ مجالسته خارج مجلس الأدب ليست ممّا يرغب الناس فيها، ولكنّه كان ميّالا إلى مجالس الإمتاع والمؤانسة، ومغرمًا بالغناء. فاقترح على الراوي وصديقه مشاركته مجلس أنسه وطربه. وقدّر أنّ الراوي وصديقه قد يمتنعان عن الاستجابة، أو على الأقلّ لا يتحمّسان لمجالسته، ويتعلّلان بأيّ سبب من الأسباب لردّ الدعوة. فعجّل ببناء صورة لذاته ذات أربعة وجوه: يتعلّق الوجه الأوّل بفراش المجلس، فسيفرش لهما المجلس ببساط من الصوف، وهو من أجود أنواع البُسط؛ لكونه يقي الجالس شرّ القرّ المتسرّب من أرضيّة المجلس من جهة، ويوفّر له الملمس الناعم، والدفء المتواصل من جهة أخرى.

ويتّصل الوجه الثاني بالطعام، فسيعدّ جحظة لمخاطبيْه طباهجة، وهي من أجود أنواع الطعام، تتكوّن أساسًا من اللحم المشرّح كأعراف الديوك، فيغنم الآكل عذوبة المذاق، والفوائد الصحّيّة فضلا عن الشبع. ويتعلّق الوجه الثالث بالسقاية، فسيخصّهما بخمرة معتّقة، وهي من أجود أنواع الخمور؛ لكونها تُركت لتقدم فصارت أطيب من غيرها. ويتعلّق الوجه الرابع بالطيب، فسيبخّر جحظة مخاطبيْه بعود الندّ، وهو من أجود أنواع الطيب؛ لكونه يبعث في النفس الانبساط والانشراح. وأمّا الوجه الخامس فيتعلّق بالغناء، فقد وعد جحظة مخاطبيْه بغناء المسدود، وهو من أطيب أنواع الغناء؛ لكونه يجمع بين قيمتيْن: الشجا والطرافة، ذلك أنّ الغناء منسوب إلى المسدود، والمسدود هو مغنّ بغداديّ عُرف بكونه أشجى الناس صوتًا، وأحضرهم نادرة.

تكشف هذه الصورة بوجوهها الخمسة التي رسمها جحظة لنفسه وجه جحظة الإيجابيّ، فهو ليس كريمًا فحسب، وإنّما في الطبقة العليا من الكرم، حيث يؤثر جليسه بأنفس ما لديه، ولا يدّخر جهدًا في إسعاده، وإدخال السرور على نفسه. ولم يصرّح جحظة بأنّه كريم أو ودود، وإنّما الصورة التي بناها لنفسه تنبئ بذلك. وهي لا تخلو من بعد ضمنيّ(٥) ينزع منزعًا حجاجيًّا. فصورة الكريم الودود المؤثر التي بناها جحظة لنفسه في خطابه تنسجم مع "قاعدة حسن الأدب

(٤) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٣٥٦).

(٥) توماس أوكونور سلوان، موسوعة البلاغة:(٣/ ٧٦٦).

والتخلّق"[٦]، وسيكون لها وقع في نفس الراوي وصديقه، وإن لم يحملهما الطمع على الموافقة على تلبية الدعوة فسيحملهما لطف جحظة وودّه على الموافقة. وقد صدق تخمين جحظة، ونجحت إستراتيجيّته الحجاجيّة، فلم يوافق الراوي وصديقه فحسب، بل استعظما الأمر، وكنّا عليه بالسجدة، كناية عن المنتهى في كلّ شيء. والمنتهى في هذا السياق هو الإمتاع والمؤانسة.

وبنى عبد الرحمن بن أبي بكرة في إجابته عن سؤال الحجّاج في المثال الثاني صورة ذاته. ووردت الصورة صورتيْن متقابلتيْن: وجاءت الصورة الأولى في الجزء الأوّل من خطاب عبد الرحمن، وتعلّقت بامتلاكه مبلغا كبيرا من المال. وأبرزت الصورة مظهرا من مظاهر عبد الرحمن، مفاده أنّه غنيّ فاحش الثراء. وهي صورة إيجابيّة تثير في المتلقّي الإعجاب بشخصيّة عبد الرحمن، وتجعله مقبلا عليه مقدّما له. وأمّا الصورة الثانية فوردت في الجزء الثاني من خطاب عبد الرحمن، وتعلّقت بذهاب أمواله باستثناء خاتمه. وأبرزت هذه الصورة مظهرًا آخر لعبد الرحمن، مفاده الإفلاس والوقوف على شفا فقر مدقع. وهي صورة سلبيّة قد تدفع البعض إلى التعاطف معه، وقد تدفع البعض الآخر إلى اطّراحه وتجاهله والنفور منه.

وجاءت الصورة التي بناها عبد الرحمن لذاته مضمرة بوجهيها. فهو لم يقل في الصورة الأولى إنّه غنيّ، ولم يقل في الصورة الثانية إنّه مفلسٌ، وإنّما صوّر نفسه في صورة الغنيّ أوّلًا، ثم في صورة المفلس ثانيًا، وعلى المخاطب أن يستخلص الصورتيْن بنفسه. وتكمن وراء هذا التقابل في الصورتيْن أبعاد حجاجيّة عميقة. ففي الصورة الأولى رغب عبد الرحمن في إثارة إعجاب الحجّاج به، والتباهي أمام بقيّة الجلساء. فعمد إلى إبراز صورة الغنى عمدًا؛ لتقديره أنّ الغنى ينزّله منزلة الأسياد والوجهاء، ومن كان بمثل منزلته جاز له مجالسة الحجّاج في مجالسه الخاصّة، والتقدّم على من في المجلس.

ولمّا فطن عبد الرحمن إلى أنّه ارتكب حماقة، قد تكلّفه دفع مبلغ كبير على سبيل الجباية، تدارك أمره، ومحا الصورة الأولى، وبنى الصورة الثانية. وهي صورة موجّهة أساسًا إلى الحجّاج؛ ليقنعه بأنّه مفلسٌ، ولا يجوز إلزامه بدفع نسبة من ممتلكاته لصاحب الجباية. ويمكن القول أنّ كلا الصورتيْن قد نهضت بدورها الحجاجيّ، فصورة الغنيّ رسّخت مكانة عبد الرحمن عند الحجّاج وبين الجلساء، وهي مكانة موجودة سلفًا، ولعلّها كانت من أبرز أسباب مجالسة عبد

(٦) جيوفري ليتش، مبادئ التداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني: (ص ١٣٩).

الرحمن للحجّاج. وأمّا صورة الفقير، فغيّبت صورة الغني من ذهن الحجّاج، وجعلته لا يتّخذ قرارًا بفرض الجباية على عبد الرحمن؛ لكونه التزم الصمت في نهاية الخبر.

٢- **الصورة السابقة للخطاب**: ميّز دومينيك منغينو بين الإيتوس الخطابيّ والإيتوس ما قبل الخطابيّ(٧). ويتمثّل الإيتوس السابق للخطاب في تلك الصورة التي يحملها المتكلّم عن السامع قبل أن يتكلّم. وهي تنهض بدور عميق في تحديد إستراتيجيّات المتكلّم وآليات الحجاج للتأثير في السامع أو إقناعه أو حمله على الاقتناع. ويمكن بيان ذلك انطلاقا من المثال الآتي:

"قال أبو منصور: وجاءني (التنّوخي) لا يعقل أمره، وحدثني ذاك، فقلت له: يا قاضي! أنت سيدي ووالدي، وأنا عبدك وولدك، والله إنّك فضولي، ما عليك من بني عبد الرحيم، وفعلهم، وهم أولياء نعمتك ومحبّوك، وأنت وليّهم، ومنتم إليهم، ومحبّ لهم، وبحيث لو قيل لك: أيّما أحبّ إليك أن تموت أنت قبل بني عبد الرحيم، أو هم قبلك؛ لاخترت سبقهم وبقاءهم بعدك؛ لأنّهم يراعونك، ويفعلون معك ما لا يفعلونه مع غيرك. وقد وسموك بدار الضرب، وما تخل من ثلاثين دينارًا في الشهر، وما هم إلى غيرك بالإطلاق فعل يقارب هذا الفعل، ثم أيّ تعلق لابن فسانجس في هذه الأمور، وهو رجل قاعد في بيته، لا يُجلِي ولا يُمرّ، ولا يقضي ولا يمضي، حَبَابُه السلامة منهم، وأن يمكنه المقام في بيته معهم حتى تكاتبه بأخبارهم وأفعالهم. ثم إنّك عدوّه ومضمر بغضه، وأنت تصوم كلّ يوم ثلاثاء لمّا قبض عليه في يوم الثلاثاء، سرورًا بمساءته، وفرحًا بمضرّته، ولما أسلف إليك من القبح الذي يطول به الشرح. فقال: أعلم أنّ بطن الأرض أحسن إليَّ من ظهرها وأصلح، قم بنا إلى المرتضى أبي القاسم نقيب النقباء"(٨).

توجّه أبو منصور بهذا الخطاب إلى التنّوخي، وكان التنّوحي قد كتب رقعة إلى كمال الدولة أبي الفضل بن فسانجس بشيء فعله أبو الحسن بن عبد الرحيم النائب عن كمال الملك. وأعطى الرقعة لغلام كان له أعور، وقال له: احمل هذه الرقعة إلى كمال الدولة، فوقع في أذنه: احمل هذه الرقعة إلى كمال الملك، فأخذها، وحملها إليه. فلمّا علم التنّوخي جاء فزعًا إلى أبي منصور يلتمس الخلاص من الورطة، وتدارك الهفوة.

(٧) دومينيك منغينو، مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، ترجمة حسن المودن: (ص ٧٦٧).

(٨) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٢٤٠).

وصورة التنوخيّ الواردة في الخطاب هي صورته السابقة للخطاب التي يحملها عنه أبو منصور. وهي حاضرة في خطاب أبي منصور من خلال ثلاث قرائن: تتمثّل القرينة الأولى في النداء، "يا قاضي"، وتتمثّل القرينة الثانية في الخطاب، وقد تنوّعت أدواته بين ضمير المخاطب أنت، في قول أبي منصور، "أنت سيّدي ووالدي"، وكاف الخطاب، مثل: "عبدك وولدك". وأمّا القرينة الثالثة فتتّصل بالأفعال والمواقف التي نسبها أبو منصور إلى التنّوخي.

وتكشف تلك القرائن ثلاثة وجوه مختلفة من الصورة التي كان أبو منصور يحملها عن التنّوخي قبل أن يلتقي به ويحاوره: يتّصل الوجه الأوّل بمنزلة التنّوخي وعلاقته بأبي منصور. فللتنّوخي منزلة رفيعة نزّلته من أبي منصور منزلة السيّد والوالد، ونزّلت أبا منصور منزلة العبد والولد. ومن واجبات العبد أو الولد السمع والطاعة للسيّد أو الوالد، وأن يصدقه القول، ويكون له مخلصًا ووفيًّا.

ولهذا الوجه الأوّل من صورة التنّوخي في خطاب أبي منصور بعد حجاجيّ، فقد بنى أبو منصور هذا الوجه الأوّل من صورة التنّوخي بطريقة تجعله مطمئنًّا نفسيًّا، ومقتنعًا بصدق أبي منصور، و وواثقًا من إخلاصه له. وسيحمل هذا الوجه الأوّل من الصورة، التنّوخي على تقبّل كلّ ما يمكن أن يرد في خطاب أبي منصور لاحقًا، دون أن تنتابه الشكوك في خطاب أبي منصور، أو يسيء الظنّ في نيّاته.

ولمّا تأكّد أبو منصور من أنّ التنّوخي قد ازداد اطمئنانًا إليه، وأنّه لن يغضب منه فيما يمكن أن يقوله له، استرسل في بناء الوجه الثاني من صورة التنّوخي، وقد اتّصل بعلاقة التنّوخي ببني عبد الرحيم، فقد كرّموه وأحسنوا إليه، وأنعموا عليه، وقدّموه على غيره. وهو منسوب إليهم محبّ لهم. ومن واجبات المولى الاعتراف بالجميل لوليّ نعمته، والوفاء له. ولا يخلو هذا الوجه الثاني من صورة التنّوخي من بعد حجاجيّ، مداره اتّهام التنّوخي بالخيانة والغدر. فهو لم يراعِ عهد بني عبد الرحيم، ولا ذمّتهم، ولم يفِ لهم بما يجب عليه الوفاء به لهم؛ لكونه سارع إلى الوشاية بهم بمجرّد أن توهّم أنّ نائبهم قد أساء التصرّف في بعض الأمور.

وإذا تجرّأ أبو منصور على وصف التنّوخي في بداية بناء الوجه الثاني من صورته بأنّه "فضوليّ"، فإنّه عدل عن التصريح إلى التلميح، ولم يقل له إنّك خائن وغدّار ولئيم، بل جعل الصورة هي الموحية بذلك. وهي صورة تحطّ من قيمة التنّوخي، وتنتهك وجهه السلبيّ، وتحصره في زاوية الرذائل، فلا يجد إلى الخروج منها بعد ذلك سبيلا. ولا شكّ في أنّ هذه الصورة سيكون لها مفعول حجاجيّ عميق في التنّوخي، فيقتنع أو يزداد اقتناعا بأنّه أساء الأدب مع بني

عبد الرحيم، وأنّه أتى منكرا يأباه الكرام، ويعرض عنه ذوو المروءة. فيشعر بالخزي، ويقتنع باللؤم.

وعندما أمن أبو منصور شرّ التنّوخي، واطمأنّ إلى أنّه لن يعترض عليه، ولن يرميه بالمبالغة، والتحامل عليه، انبرى يبني الوجه الثالث من الصورة، وتعلّق بعلاقة التنّوخي بكمال الدولة أبي الفضل بن فسانجس، فالعداوة مستحكمة بينهما؛ بسبب سوء معاشرة كمال الدولة للتنّوخي، وتشفّي التنوخي من كمال الدولة بعد نكبته، وهذا فضلاً عن انحسار نفوذ كمال الدولة، وتراجع سلطته ومكانته.

ولهذا الوجه الثالث من صورة التنّوخي الواردة في خطاب أبي منصور، بعد حجاجيّ، فإذا لم يصرّح أبو منصور بأنّ التنّوخي خسيسٌ، وضعيفَ الهمّة، فإنّ الصورة تكشف مدى خسّة التنّوخي، وضعف همّته، فهو يراسل عدوّه للوشاية بوليّ نعمته، وما بعد ذلك في طبقات الخساسة طبقة أخرى.

ولا شكّ في أنّ لهذا الوجه الثالث من وجوه صورة التنّوخي الواردة في خطاب أبي منصور، مفعولاً حجاجيًّا عميقًا في التنّوخي، فيدرك أنّه استنصر بعدوّه على وليّ نعمته، وأنّه وضيع لا يقيم وزنًا للأنفة والإباء، وأنّه ذليل لا يراعي كبرياءه. وهذا فضلا عن كونه استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ذي شرر، فيزداد اقتناعًا بأنّه أساء إلى نفسه، وحطّ من قيمته، وعفّر أنفه بالتراب، وأنّه في الطبقة العليا من اللؤم والوقاحة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ، فبعد أن اكتملت الصورة في ذهن التنّوخي، تضاعف مفعولها الحجاجيّ، فأيقن التنّوخي أنّه ارتكب خطأ فظيعًا، وأنّ صورته منفّرة، وأنّه لم يُبق سببًا من الأسباب يمكن أن يعتمده أبو منصور لإيجاد مخرج له من الورطة. ولمّا تأكّد أنّ أبا منصور لن يقدّم له أيّ خدمة، ولّى وجهه شطر نقيب النقباء يلتمس إقالة من عثرته، وتجاوزًا عن حماقته.

٣- التقنيات الحجاجيّة:

وجدت الشخصيّات نفسها في سياقات تفاعليّة عدّة مجبرة على الدفاع عن أطروحاتها، والتمكين لها في ذهن الخصم، أو مهاجمة أطروحة الخصم، ودحضها، وبيان تهافتها. وقد التجأت في مسعاها الحجاجيّ ذلك إلى تنويع تقنياتها الحجاجيّة، دون التصريح بها أحيانًا. ويمكن توضيح ذلك في الخبر الآتي:

"حدّثني هارون بن محمّد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي يوماً للمظالم. فلمّا انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً. فقال له: ألك حاجة؟ قال: تدنيني إليك فإنّي مظلوم. فأدناه. فقال

له: أنا مظلومٌ قد أعوزني الإنصاف. قال: من ظلمك؟ قال: أنت، ولست أصل إليك فأذكر حاجتي. قال: ومن يحجبك عنّي وقد ترى مجلسي مبذولاً؟ قال: يحجبني عنك هيبتي لك، وخوفي منك، وطول لسانك وفصاحتك، واطّراد حجتك. قال: ففيم ظلمتك؟ قال: ضيعتي الفلانيّة أخذها وكيلك منّي غصباً بغير ثمن. وإذا وجب خراجها أدّيته أنا في الديوان عنك؛ لئلا يثبت لك اسم في الديوان بتصرّفك فيها، وملكك لها فيبطل ملكي. فوكيلك يأخذ غلّتها، وأنا أؤدّي خراجها. وهذا ما لم يسمع مثله في الظلم. فقال له: هذا قول يحتاج إلى بيّنة وشهود وأشياء غير ذلك. فقال له: تؤمّنني من غضبك حتّى أجيب؟ قال: قد أمّنتك. قال: البيّنة أطال الله بقاءك هم الشهود، والشهود هم البيّنة. وأشياء غير ذلك عيّ منك وحصر وظلم وتغطرس. فضحك منه، وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق. وإنّي لأرى فيك مصطنعاً. ووقّع له بردّ ضيعته عليه، وبأن يطلق له كرّان حنطة، وشعيرًا ومائة دينار، يستعين بها على عمارة الضيعة. وصيّره بعد ذلك من أصحابه، واصطنعه لنفسه"[٩].

دار التفاعل القوليّ في المثال الأوّل بين الرجل والقاضي في مجلس القضاء، وكان الرجل يعلم علم اليقين أنّ جميع العناصر السياقيّة غير مناسبة بالنسبة إليه، فالمجلس مجلس قضاء، تخضع الأقوال والأفعال فيه لضوابط دقيقة، والخصم خصم مختلف في مستويات عدّة، فهو القاضي نفسه، ويسمح له وضعه المؤسّسيّ ذاك ببسط نفوذه، وفرض وجهة نظره، وهو ذو كفاءة خطابيّة وحجاجيّة لا يُشقّ لها غبار، فجمع بين السلطة القضائيّة والسلطة الخِطابيّة. وهذا فضلا عن كون القاضي هو الخصم والحكم في الوقت نفسه، ولا شكّ في أنّه لن يقبل من يضعه موضع شبهة، وهو الذي سبق في وعيه أنّه حارس العدالة وأمين الإنصاف، ولن يسمح لأيّ كان بأن يرميه بتهمة من التهم في مجلس القضاء ذاته، وهو المجلس المعدّ رسميًّا لدرء المظالم وردّ الحقوق. فكان لكلّ تلك العناصر السياقيّة تأثير عميق في خطاب الرجل، فراوح في حجاجه بين التصريح حينًا والتلميح أحيانًا أخرى.

(٩) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٣٨٩-٣٩٠).

بدأ الرجل حجاجه بالقياس الخَطابيّ(١٠) "إنّي مظلومٌ"، ولكنّه قياسٌ ناقصٌ، فقد أضمر الرجل المقدّمة الكبرى، والمقدّمة الصغرى، واكتفى بالنتيجة. وتقدير ذلك القياس على النحو الآتي:

المقدّمة الكبرى: سرقة الأرزاق ظلم.

المقدّمة الصغرى: أنا تعرّضت لسرقة أرزاقي.

النتيجة: أنا مظلوم.

علم الرجل أنّ القاضي لم يفطن للمقدّمتين الكبرى والصغرى، فكرّر حجّة القياس نفسها ثانية "أنا مظلومٌ"، وعمد إلى تجريد ضمير المتكلّم المفرد من الناسخ الحرفيّ "إنّ"؛ لإبراز الذات المكلومة ظلمًا، ثم استرسل في الخطاب متوسّلا بالحجّة نفسها محتميًا بما فيها من إضمار، فذكر النتيجة "أنت ظلمتني"، وأضمر المقدّمتيْن. وتقدير القياس الخطابيّ على النحو الآتي:

المقدّمة الكبرى: من يسرق أرزاقي ظلمني.

المقدّمة الصغرى: أنت سرقت أرزاقي.

النتيجة: أنت ظلمتني.

لم يفطن القاضي للمقدّمتيْن المضمرتيْن، فاستخبر الرجل عن موضوع الظلم. فلم يجد الرجل بدًّا من الخروج من الإضمار والتلميح إلى الجهر والتصريح. فبسط الكلام فيما دأب وكيل القاضي على ارتكابه، حيث يستولي على المنتوج، ويُجبر الرجل على دفع الخراج؛ لأنّ الضيعة مسجّلة في الديوان باسمه. ولمّا أنس الرجل من القاضي بداية اقتناع، سارع إلى تعزيز مسعاه الحجاجيّ بحجّة المقارنة في قوله: "وهذا ما لم يسمع مثله في الظلم"، أملاً في حمل القاضي على الاقتناع بأنّه تجاوز الحدّ في الظلم، فيعجّل بردع الوكيل، وردّ الضيعة إلى صاحبها.

ولكنّ الرجل ارتكب هفوةً من حيث لا يشعر، فقد رسم صورة سلبيّة للقاضي مفادها أنّه في الطبقة العليا من الظلم، وقد تؤدّي تلك الصورة مفعولاً حجاجيًّا عكسيًّا، فلا يرى فيها القاضي دليلاً على فظاعة الظلم الذي ارتكبه وكيله، بقدر ما يرى فيها انتهاكًا لوجهه السلبيّ، وتطاولًا عليه. وكان القاضي حكيمًا ثبًّا رصينًا، وغلب عليه طبع القضاء، فلم يسلّم بمقالة

(١٠) يقول ابن رشد: "إنّ كلّ تصديق إمّا يكون بالقياس وما يجانس القياس وهو المسمّى "ضميرا"، وإمّا بالاستقراء وما يجانس الاستقراء وهو المسمّى "تمثيلا"". ابن رشد، نصّ تلخيص منطق أرسطو، كتاب أنالوطيقي الأوّل أو كتاب القياس، (٤/ ٣٥١).

الرجل، ولم ينفعل فيسارع إلى الرجل بسوء العشرة، وجفاء القول، وإنّما طالبه بالمؤيّدات الداعمة لدعواه، قائلا: "هذا قول يحتاج إلى بيّنة وشهود وأشياء غير ذلك".

أدرك الرجل أنّه تجاوز الحدّ المسموح به في خطابه مع القاضي، وأنّه تطاول عليه في رسم صورة سلبيّة انتهكت وجه القاضي السلبيّ؛ ولكنّه في الوقت نفسه وجد نفسه ملزمًا بالدفاع عن حقوقه المغتصبة، فسارع إلى طلب الأمان من القاضي؛ ولمّا ناله استأنف عمليّة بناء صورة القاضي السلبيّة، وكان أجرأ في الصورة الجديدة، فنسب القاضي إلى العيّ والحصر والظلم والتغطرس، عندئذ أدرك القاضي أنّه محجوج، وليس له ما به يردّ دعوى الرجل، وأنّ الرجل قد بلغ مبلغًا عظيمًا في انتهاك وجهه السلبيّ، فآثر السلامة، والنجاة بوجهه الإيجابيّ، فأقرّ بظلمه، وعجّل بردّ الضيعة إلى الرجل، ولم يكتف بذلك، بل جبر ضرره المادّيّ. فوهبه الحنطة والشعير ومائة دينار، وجبر ضرره النفسيّ، فصيّره من خاصّته.

ويتّضح أنّ البعد الحجاجيّ كان ملازمًا لخطاب الشخصيّات، وأنّ طرائقه اختلفت من شخصيّة إلى أخرى، وتنوّعت من مقام تواصليّ إلى آخر. ولم يكن البعد الحجاجيّ ملازمًا لخطاب الشخصيّات فحسب، بل كان ملازمًا كذلك لخطاب الراوي. فكيف تجلّى البعد الحجاجيّ في خطاب الراوي؟ وما الأدوات الناهضة به؟

ثانيا: البعد الحجاجيّ في خطاب الراوي

لم يكن الراوي في كتاب "الهفوات النادرة" محايدًا كلّ الحياد، ولم يقتصر دوره على جمع الأخبار والحكايات ونقلها إلى المروي له، بل كانت له غايات وأهداف حرص على إيصالها إلى المتلقّي، ولكنّه لم يجهر بذلك، وإنّما آثر إضمارها. فكان البعد الحجاجيّ حاضرًا في خطابه، وتجلّى في طرائق مختلفة، أبرزها صورة الذات.

١ – صورة الذات:

إنّ اللغة في المقاربات التداوليّة "عمل ثقافيّ موغل في التعبير عن الأنا المتكلّم في جميع الأحوال والمقامات وفي سياقات التلفّظ كافّة"(١١). وقد عبّر بها الراوي في كتاب "الهفوات النادرة" عن "أناه"، فبنى صورة ذاته في مواضع عدّة، حرصًا على إكساب كلامه أكبر قدر ممكن من النجاعة. ويمكن توضيح ذلك في المثالين الآتيين:

(١١) صالح بن رمضان، الشعريّة العربيّة والمقاربات التداوليّة: (ص ٤٠٤).

– المثال ١: "واتّفق أن لحقني منه ما صدق العجب والاستظراف، ونالني فيه من الخجل والحياء ما بلغ الإفراط والإسراف، فعملت على جمع ما ندر من ذلك، وإن كان قليلاً معلومًا، وضمّ ما تفرّق منه إن كان علمًا مأمومًا، وأضفت إليه قطعة من أخبار المغفلين المحظوظين والجهال المرزوقين، فإنها جارية في أسلوبه، وشبيهة بمقصوده، إحماضًا لقاريه، وتنبيهًا له على قدر نعمة الله تعالى عنده وفيه، والله تعالى ولي التوفيق والتسديد"(١٢).

– المثال ٢: "فأوّل ما أبدأ به ما خصّني منه، وهو أنّني كنت جالساً وإلى جانبي أبو سعد القادسي أحد المتفقّهين المتشدّقين، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسّفين. فقلت مسرعاً متبرعاً: إنّه يشبه ابن القادسي فيما يتعاطاه ممّا يتجاوز فيه الصواب ويتخطّاه. ثم استيقظت من رقدة زلّتي، وانتبهت لهفوتي، فالتفتّ إليه عجلا. وقلت له مسرعًا، وكان له أخٌ بالحمق مشهور وبالهذيان معروف، وهو بذاك عالمٌ، وله دائمًا عليه لائمٌ، اعلم أيّها السيّد أنّ أخاك يسمع من الألفاظ الأدبيّة، ذات المعاني الغريبة ما لا يفهمه، ويحبّ أن يستعمله، وعنده أنّ ذلك وِرد يرده الواردون من غير تعب، ويورده الموردون من غير أدب، فيصدر عنه الكلام المستعجم، وتصير أغراضه ومعانيه لا تفهم، فنحن نضرب به الأمثال، هُذاء يورده بوجه وَقاح غير حييّ، وخاطر لفاح غير ونيّ. فقال لي: والله العظم إنّني لألومه على فعله دائماً، وأمنعه منه دائباً، وأعلم أنّ الأقوال تكثر فيه، وتزري عليه، وهو على ما علمت من الجهل الذي يورده ولا يصدره، ويحسن له ما يقوله ويذكره. فحين شاهدته قد تحقق قولي ورضيه، ولم يخطر بقلبه ما يغضبه ويؤذيه، أتتني فرجة اقتحمتها، ولحقتني فرحة ما احتبستها"(١٣).

بنى الراوي في المثال الأوّل صورة لنفسه من حيث هو راوٍ. وعرض فيها أسباب تأليف الكتاب، والمادّة المكوّنة له، ومنهجه في التأليف، ومقاصده من ذلك. وقد تميّزت هذه الصورة بثلاث سمات: تتعلّق أولاها بالانطلاق من الأسباب الذاتيّة في تأليف الكتاب على خلاف السبب الشائع بين المؤلّفين، والمتمثّل في الاستجابة لطلب صاحب سلطة ووجاهة. وتتّصل السمة الثانية بالعدول عن التأليف الموسوعيّ إلى التأليف الغرضيّ، والاقتصار على موضوع واحد هو الهفوات النادرة. وأمّا السمة الثالثة فتتّصل بالجمع في أغراض الكتاب بين الإمتاع والإقناع، عن طريق مخاطبة المكوّنيْن النفسيّ والذهنيّ في القارئ.

(١٢) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٤).
(١٣) المصدر نفسه: (ص ٥-٦).

ولهذه الصورة أبعاد حجاجيّة عدّة، فالراوي أبرز وجوه الاختلاف في كتابه عن سائر الكتب الأخرى خصوصًا كتب الأخبار الأدبيّة، فضلا عن كونه أظهر نفسه أنّه راوٍ ثقةٍ ثبت. ولعلّ كلّ ذلك سيحفّز المروي له على الإقبال على الكتاب؛ ليغنم منه ما كان ممتعًا، ويعقل منه ما كان مقنعًا، فيعدّل سلوكه بناء على ما يعرضه عليه الكتاب(١٤).

وبنى الراوي في المثال الثاني صورة لنفسه من حيث هو شخصيّة. ولهذه الصورة أربعة وجوه: يتعلّق وجهها الأوّل بالتسرّع، فالراوي نطق عن غير فكر ورويّة، ولم يراع مختلف العناصر السياقيّة، ولم يأخذ بالاعتبارات الخطابيّة، ولم يربط بين كلامه ومقتضى الحال. فجاء كلامه مخالفًا للسياق، فكان وبالاً عليه. ويتّصل الوجه الثاني بالمأزق. فقد أوقع الراوي نفسه في ورطة مع أبي سعد القادسيّ بعد أن نال من أخيه، ونسبه إلى الثقل والتعسّف والحمق والهذيان. فجاء بجريرة كادت تذهب بماء وجهه. ويتعلّق الوجه الثالث بالكفاءة الخطابيّة، فقد تدارك الراوي تلك الهفوة، وأخرج نفسه من الورطة بحسن التلطّف مع أبي سعيد، والقدرة على الإقناع. وأمّا الوجه الرابع فيتّصل بالنجاة من الورطة، فقد انتابت الراوي أريحيّة، وشعر بالانبساط لمّا أيقن أنّ أبا سعد القادسيّ قبل حجّته، ولم يؤاخذه على ما بدر منه.

ولهذه الصورة المتعدّدة الوجوه أبعاد حجاجيّة عدّة. فالراوي ينقل تجربة عاشها، وهي ذات حمولة صدقيّة أقوى من التجارب التي نقلها لشخصيّات أخرى، إضافةً إلى تميّزه بالكفاءة التي يسّرت عليه الخروج من المأزق بأخفّ الأضرار النفسيّة أو المادّيّة. ولا شكّ في أنّ المروي له سيعتبر بتجربة الراوي الشخصيّة، ويقتنع أو يزداد اقتناعًا، بخطورة مثل تلك الهفوات النادرة، ويعمل على التحوّط منها في المجالس الخاصّة والعامّة.

٢- أحكام القيمة:

ظهرت في خطاب الراوي التراكيب والوحدات المعجميّة الدالّة على حضور الذات في خطابها، وحملت تلك التراكيب والوحدات المعجميّة أحكامًا ذاتيّة، يحكم بها المتكلّم على

(١٤) يقول محمّد مشبال: "يكتسب الخطاب قيمته وفعاليّته من السلطة التي يحظى بها المتكلّم، ومن السمات التي تحدّد هويّته في وعي السامعين. فقيمة الخطاب مستمدّة من قيمة صاحبه، وتأثيره في السامعين مستمدّ من تأثير صورته فيهم". في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات: (ص ١٦٩).

موضوع كلامه، ويكشف موقفه منه. ومن تلك الأحكام ما هو عاطفيّ وما هو تقويميّ[١٥]، وهي أحكام أكسبت كلامه بعدًا حجاجيًّا، ويمكن بيان ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

– المثال ١: "وكنتَ جارَيْتَني من الهفوات الجارية على ألسن المتحفّظين المتحرّرين، والسقطات الآتية من الغارّين الغافلين، وما أشبه ذلك من المقالات وطرف الاتّفاقات طرفًا استطرفناه، وحديثًا استغربناه، واتّفق أن لحقني منه ما صدق العجب والاستطراف، ونالني فيه من الخجل والحياء ما بلغ الإفراط والإسراف"[١٦].

– المثال ٢: "وبالضدّ من هذه الحكاية"[١٧].

– المثال ٣: "كنت جالسًا وإلى جانبي أبو سعد القادسي أحد المتفقّهين المتشدّقين، وجرى ذكر بعض ثقلاء الزمان المتعسّفين فقلت مسرعا متبرّعا: إنّه يشبه ابن القادسي فيما يتعاطاه؛ ممّا يتجاوز فيه الصواب ويتخطّاه. ثم استيقظت من رقدة زلتي، وانتبهت لهفوتي، فالتفتّ إليه عجلاً، وقلت له مسرعًا، وكان له أخٌ بالحمق مشهور، وبالهذيان معروف، وهو بذاك عالم، وله دائمًا عليه لائم"[١٨].

توجّه الراوي بالخطاب في المثال الأوّل إلى المروي له، معرّفا إياه بموضوع الكتاب، وطبيعة المادّة السرديّة المكوّنة له، فوصف طرف الاتّفاقات بأنّها مستطرفة، ووصف الحديث بأنّه مستغرب، ووصف ما لحقه من ذلك بأنّ عجيب مستطرف. وتلك الصفات أحكام قيمة أطلقها الراوي على الموصوف. ولا تخلو أحكام القيمة تلك من أبعاد حجاجيّة، فهي جميعها ترسم صورة إيجابيّة عن الموصوفات التي تمثّل مادّة الكتاب. ولا شكّ في أنّ ذلك سيكون له مفعول حجاجيّ ذو وجهين في القارئ: يتمثّل أوّلهما في خلق أفق انتظار لدى المروي له، يجعله مقتنعًا بالإقبال على تلقّي مادّة الكتاب، ويتمثّل الوجه الثاني في تشويق المروي له إلى ما هو طريف وغريب وعجيب، فيتحفّز لذلك، ويقبل عليه.

---

(١٥) ميّز عبد الله صولة استنادا إلى أوركيوني بين الأحكام العاطفيّة والأحكام التقويميّة. وميّز في الأحكام التقويميّة بين الأحكام الأخلاقيّة مثل حسن وجميل، والأحكام غير الأخلاقيّة مثل كبير وبعيد. الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة: (ص ١٣٨).

(١٦) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٤).

(١٧) المصدر نفسه: (ص٥٨).

(١٨) المصدر نفسه:(ص ٥).

وتعلّق حكم القيمة في المثال الثاني بموضوع الكلام، فقد حكم الراوي على الحكاية التي سيوردها بأنّها ضدّ الحكاية التي كان بصدد روايتها. ولهذا الحكم توجيه حجاجيّ، فالحكاية الأولى مدارها على معاقبة عضد الدولة للاعبيْ الشطرنج على ما بدر منهما من سوء الأدب، ومدار الحكاية التالية على مكافأة عضد الدولة لأحد لاعبيْ الشطرنج، ولعلّ القارئ بحكم الراوي على الحكايتيْن بأنّهما ضدّان، يزداد شوقاً إلى معرفة الحكاية التالية، ويزداد اقتناعًا بما بين العقاب والمكافأة من ضدّيّة.

ورغم اندراج الراوي في الحكاية في المثال الثالث فإنّه توجّه بالخطاب إلى المروي له، ووصف له شخصيّتيْن، فوصف أبا سعد القادسيّ بأنّه متفقّه متشدّق، ثم وصف الأخ بأنّه أحمق وذو هذيان. ويمثل وصف الشخصيّتيْن أحكام قيمة، وهي تنزع منزعا حجاجيّا، فالحكم على أبي سعيد بأنّه متفقّه متشدّق يرسم له صورة سلبيّة في ذهن المروي له، فينفر منه ويرغب عنه، وينزّله حيث وصفه الراوي. والأمر ذاته بالنسبة إلى الحكم على الأخ بأنّه أحمق وصاحب هذيان، فمن شأن حكم القيمة ذاك أن يجعل الأخ في صورة سلبيّة ينفر منها المروي له ويزدريه.

٣- إستراتيجيّات الحجاج:

كان الراوي حريصًا على التأثير في المروي له، وإقناعه أو حمله على الاقتناع، دون التصريح بأنّه بصدد المحاجّة. فعمد إلى تنويع إستراتيجيّاته الحجاجيّة، واختار توظيف إستراتيجيّة الحضور وإستراتيجيّة الامّحاء التلّفظيّ. ولهاتيْن الإستراتيجيّتيْن أبعادٌ حجاجيّة متنوّعة.

أ- إستراتيجيّة الحضور: عمد الراوي إلى الإعلان عن ذاته في مواضع عدّة. وقد نوّع تقنيّات الإعلان تلك. ويمكن توضيحها انطلاقا من الأمثلة الآتية:

- المثال ١: " فعملت على جمع ما ندر من ذلك وإن كان قليلاً معلوماً، وضمّ ما تفرّق منه إن كان علمًا مأمومًا، وأضفت إليه قطعة من أخبار المغفّلين المحظوظين والجهّال المرزوقين، فإنّها جارية في أسلوبه، وشبيهة بمقصوده، إحماضًا لقاريه، وتنبيها له على قدر نعمة الله تعالى عنده وفيه، والله تعالى وليّ التوفيق والتسديد"(١٩).

- المثال ٢: "وحدّثني أبو سعد محمّد بن علي المانداي، قال:..."(٢٠).

- المثال ٣: "كنت جالسًا وإلى جانبي أبو سعد القادسي أحد المتفقّهين المتشدّقين"(٢١).

(١٩) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ٤).

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٥.

يندرج المثال الأوّل في مقدّمة كتاب الهفوات النادرة، وقد وظّفها الراوي للإعلان عن حضوره، فتوجّه إلى القارئ بالخطاب معرّفا إياه بموضوع الكتاب ومنهجه وأبعاده. وجعل تلك الأبعاد صنفيْن: أبعادًا نفسيّة تتمثّل في الإحماض، أي الإفاضة فيما يؤنس المروي له من الكلام. وأبعادًا ذهنيّة، تتمثّل في تنبيه المروي له للمزالق التي يُحتمل أن يجد نفسه فيها.

ولتلك الأبعاد النفسيّة والذهنيّة حمولة حجاجيّة، فمؤانسة القارئ بالحديث في الهفوات النادرة والعجيبة والغريبة، تُخرجه من حالة نفسيّة إلى أخرى، وتيسّر عليه تقبّل العبر والمواعظ من تلك الهفوات. وأمّا تنبيهه فيحمله على الاقتناع بمخاطر تلك الهفوات، والعمل على الاحتراس منها، وعدم الوقوع فيها.

واختار الراوي في المثال الثاني تقنية أخرى من تقنيّات إستراتيجيّة الحضور تمثّلت في إدراج نفسه في الإسناد، فقد ألحق نفسه بسلسلة السند، ونهض بدور الراوي الأخير، وتحمّل الخبر سماعًا عن أبي سعد محمّد بن علي المانداي. ولهذا الحضور في السند بعد حجاجيّ يتمثّل في إضفاء الأمانة العلميّة على الخبر، وتأكيد واقعيّة عمليّة نقل الخبر. فالخبر ليس موضوعًا لا صلة له بالواقع المرجعيّ بقدر ما هو خبر تاريخيّ، وصل إلى القارئ عن طريق سلسلة من الرواة الموثوق في روايتهم. وينعكس ذلك على الوقائع المسرودة، ومضمونها القيميّ، فيقتنع القارئ أو يزداد اقتناعًا بأنّ الهفوات أخطاء ارتكبتها شخصيّات حقيقيّة، ويُحتمل أن يرتكبها هو نفسه، فيعمل على التحوّط منها، والابتعاد عنها.

وأمّا في المثال الثالث فقد آثر الراوي أن يوظّف تقنيّة أخرى من تقنيّات إستراتيجيّة الحضور، تمثّلت في المشاركة في الأحداث، فقد صار شخصيّات من شخصيّات عدد من الأخبار والحكايات، وهو بذلك ينقل تجارب عاشها، ووقائع عاينها، ومغامرات شارك فيها. ولا شكّ أنّ في ذلك أبعادًا حجاجيّة، فالمرويّ له سيزداد ثقة في كلام الراوي، فيسلّم بما عرض عليه من مخاطر الهفوات، ويعمل على الاحتراس منها.

ب- إستراتيجيّة الانحاء التلفّظيّ:

هيمنت إستراتيجيّة الانجّاء التلفّظيّ في كتاب "الهفوات النادرة"، فأصبح الراوي راويًا نكرة غفلا. وظهر الانحّاء التلفّظيّ في مستويَيْن: يتعلّق المستوى الأوّل بالإسناد، ويمكن توضيح ذلك اعتمادًا على الأمثلة الآتية:

- المثال ١: "وحكى الأصمعيّ قال:..."[٢٢].

- المثال ٢: "ابن مهرويه عن علي بن القاسم قال:..."[٢٣].

- المثال ٣: "وبالإسناد قال:..."[٢٤].

- المثال ٤: "وكان خارجة بن زيد إذا صلّى الجمعة انصرف إلى داره..."[٢٥].

عمد الراوي في هذه الأمثلة إلى إخراج نفسه من سلاسل الإسناد، ونوّع طرائقه في ذلك. فقد أسند في المثال الأوّل فعل الأداء "حكى" إلى الأصمعيّ، ولم يسند إلى نفسه أيّ فعل من أفعال الأداء. وغيّب في المثال الثاني فعل الأداء كلّيًّا، وصدّر السند بالراوي الأخير، وأجمل الإسناد في المثال الثالث، ولم يذكر أفعال الأداء أو الرواة. وأمّا في المثال الرابع فقد أسقط الإسناد كلّيًّا، فجاء الخبر مصمتًا.

وظّف الراوي كلّ تلك الطرائق لتحقيق الامّحاء التلفّظيّ، وفي ذلك أبعادٌ حجاجيّة عدّة، فالراوي أظهر حياده، فهو لم يضع الأخبار، ولم يحوّرها، ولم يكيّفها حسب غاية من الغايات، وإنّما نقلها على نحو ما هي عليه. فاكتسب الخبر حمولة أخرى من الصدق والموضوعيّة، وأمّا القارئ فيجد نفسه يتلقّى الخبر تلقّيًا مباشرًا، دون تأثير من الراوي الغفل، فيضطر إلى الاستدلال، بحثًا عن الأطروحة التي يدافع عنها الراوي الغفل، والمتمثّلة في التحوّط من الهفوات والمزالق.

ويتعلّق المستوى الثاني من الامّحاء التلفّظيّ بالحكاية، فالراوي كان راويًا من خارج الحكاية في النسبة الكبرى من الأخبار والحكايات الواردة في كتاب "الهفوات النادرة". فغابت المشيرات المحيلة على الراوي أو مقام التلفّظ. ولا يخلو هذا المظهر من مظاهر الامّحاء التلفّظيّ من أبعاد حجاجيّة، فالراوي لا يضغط على ذهن المروي له، وإنّما يترك له حرّيّة الاستدلال والتأويل للوصول إلى الأطروحة المضمرة بنفسه، فيزداد بها اقتناعًا؛ لشعوره بأنّها غير مسلّطة عليه من الراوي.

(٢٢) غرس النعمة، الهفوات النادرة، ص ٥١.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٥٩.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٧٣.

٤ – تقنيات الحجاج:

عدل الراوي في كتاب "الهفوات النادرة" عن الحجج المباشرة، سواء كانت شبه منطقيّة أم مؤسّسة على بنية الواقع أو مؤسّسة لبنية الواقع، وآثر الحجاج بالسرد. ويمكن بيان ذلك انطلاقا من الخبر الآتي:

"وحكى السلّامي الشاعر قال: دخلت على عضد الدولة، فمدحته، فأجزل عطيتي من الثياب والدنانير. وبين يديه جام خسرواني، فرآني ألحظه، فرمى به إليّ وقال خذه، فقلت: وكلّ خير عندنا من عنده. فقال عضد الدولة: ذاك أبوك. فبقيت متحيّرا لا أدري ما أراد. فجئت أستاذًا لي فشرحت له الحال، فقال: ويحك قد أخطأت خطيئة عظيمة؛ لأنّ هذه الكلمة لأبي نواس يصف كلبًا حيث يقول [الرجز]:

أنعتُ كلباً أهلهُ من كدَّهِ قد سعدت جدودهم بجدّهِ

وكلّ خير عندهم من عندهِ يَظَلُّ مَولاهُ لَهُ كَعَبدِهِ"[٢٦].

ارتكب السلّامي الشاعر في هذا الخبر هفوة ذات وجهيْن: يتمثّل الوجه الأوّل في جهله بشعر أبي نواس، ومعانيه ومقاصده، فرسم لذاته صورة الجاهل أمام عضد الدولة. ويتمثّل الوجه الثاني في تشبيه الممدوح بالكلب، ويرتقي هذا الوجه من الهفوة إلى درجة الحماقة.

إنّ السلّامي كان سيجني على نفسه جناية كبيرة لولا حلم عضد الدولة، ورحابة صدره، وأخذه بالنيّات، وعدم أخذه بالنصّ. فالسلّامي في هذا الخبر نموذج لكلّ من يقول ما لا يعرف، والجاهل بمصادر الكلام ومقاصده.

ولا يخلو هذا الخبر من أبعاد حجاجيّة، ودعوى يدّعيها[٢٧] الراوي، فالجمع بين "المكوّن اللغويّ" والمكوّن البلاغيّ"[٢٨] يجعل الخبر تمثيلاً سرديًّا لمضمون فكريّ قيميّ، وليس التمثيل السرديّ إلّا حجّة تمثيل، أو حجّة سرديّة لأطروحة مضمرة تقديرها، لا تقل ما لا تعلم. وعلى

(٢٦) غرس النعمة، الهفوات النادرة: (ص ١٧٠–١٧١).

(٢٧) يقول عبد الهادي بن ظافر الشهري: "لا خطاب بلا حجاج، ولا مخاطب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة "المدّعي"". الخطاب الحجاجيّ عند ابن تيميّة، مؤسّسة الانتشار العربيّ: (ص ٦١).

(٢٨) جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة: (ص ٤٢).

القارئ أن يقوم بجهد استدلاليّ[٢٩]؛ ليصل بنفسه إلى ذلك المضمون القيميّ، ويستخلص القيمة المضمرة، فيقتنع بها، ويغيّر سلوكه تبعًا لمقتضياتها؛ لكي لا يقع فيما وقع فيه السلّامي الشاعر.

(٢٩) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغيّ: (ص ٢١).

الخاتمة

يتّضح ممّا تقدّم أنّ البعد الحجاجيّ كان حاضرا حضورًا ضمنيًّا في كتاب "الهفوات النادرة"، وقد وجدت فيه الشخصيّات والراوي ملاذًا آمنًا، يتيح لها التمكين لأفكارها، والدفاع عن أطروحاتها، وحمل الآخرين على الإذعان لتلك الأطروحات، والتسليم بها أو الزيادة في درجة الإذعان دون الجهر بذلك.

وظهر البعد الحجاجيّ في طرائق مختلفة سواء في خطاب الشخصيّات أو خطاب الراوي، فقد آثرت الشخصيات بناء صورة الذات؛ لتقول بها ما لم تقله صراحة، وعمدت إلى بناء صورة محاوريها السابقة للخطاب؛ لبلوغ مقاصد يمنعها المقام أحيانًا من الجهر بها. ولجأت في سياقات عدّة إلى تنويع طرائقها الحجاجيّة التي حقّقت لها ما أضمرته من رغبة في التأثير أو الإقناع أو الحمل على الاقتناع.

ولم يختلف الراوي كثيرًا عن الشخصيّات، فقد عدل عن الحجاج المباشر إلى الحجاج الضمنيّ، فبنى صورة لذاته سواء من حيث هو راوٍ، أو من حيث هو شخصيّة، وضمّن اختياراته المعجميّة والتركيبيّة أحكام قيمة مختلفة، وراوح في إستراتيجيّاته الحجاجيّة بين الحضور والإمّحاء التلفّظيّ، وركن إلى الحجاج بالسرد بديلاً عن إغراق المروي له في دفق من الحجج المباشرة. ووظّف كلّ ذلك؛ لتحقيق غايات عدّة، أدناها التأثير في المروي له، وأقصاها تغيير سلوكه.

وهكذا فإن البعد الحجاجيّ يظلّ حاضرًا في الخطاب السرديّ القديم، وهو طريقة من الطرائق التي تسمح بالقول دون قول، وتوصل الرسالة إلى المتلقّي دون جهر المتكلّم بفحوى الرسالة، فتكون الحجج مقنعة أكثر من الحجج المباشر، ولعلّ النظر في البعد الحجاجيّ في الخطاب السرديّ الحديث يؤكّد هذه النتائج ويعزّزها.

قائمة المصادر والمراجع

١. الاستدلال البلاغيّ، شكري المبخوت، دار المعرفة للنشر وكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات بجامعة منّوبة-وحدة البحث في "تحليل الخطاب"، ط ١، ٢٠٠٦.

٢. الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، عبدالله صولة، كليّة الآداب بمنّوبة، ٢٠٠١.

٣. الخطاب الحجاجيّ عند ابن تيميّة، عبد الهادي بن ظافر الشهري، مؤسّسة الانتشار العربيّ، ط ١، بيروت، ٢٠١٣.

٤. الشعريّة العربيّة والمقاربات التداوليّة، صالح بن رمضان، ضمن كتاب النصّ الأدبيّ القديم من الشعريّة إلى التداوليّة، تحرير وتنسيق وتقديم محمد مصطفى حسانين، دار كنوز المعرفة والنشر، ط ١، عمّان، ٢٠١٨.

٥. فنّ الخطابة، أرسطو ، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، آفاق عربيّة، ط٢، بغداد، ١٩٨٦.

٦. فنّ الشعر، أرسطو، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973.

٧. في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغيّة حجاجيّة لتحليل الخطابات، محمد مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط ١، عمّان، ٢٠١٨.

٨. مبادئ التداوليّة، جيوفري ليتش، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١٣.

٩. مشكلات الحجاج بواسطة الإيتوس من البلاغة إلى تحليل الخطاب، دومينيك منغينو، ترجمة حسن المودن، ضمن التحليل الحجاجيّ للخطاب، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط ١، عمّان، ٢٠١٦.

١٠. موسوعة البلاغة، توماس أوكونور سلوان، ترجمة نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، ج ٣، المركز القوميّ للترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠١٦.

١١. نظريّة الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن أهمّ نظريات الحجاج في التقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمّود، منشورات كلّيّة الآداب منّوبة، ١٩٩٨.

Rumination of resources

.1. Al-Istidlāl alblāghī, Shukrī al-Mabkhūt, Dar Al-Ma'rifa for Publishing and the Faculty of Arts, Arts and Humanities at the University of Manouba - Research Unit in "Discourse Analysis", 1st edition, 2006.
2. Al-Ḥajjāj fī al-Qur'ān min khilāl ahmm khaṣā'iṣuhu al'slwbyyh, Allāh Ṣūlah, Faculty of Arts in Manouba, 2001.
3. Al-Khiṭāb alḥjājī 'inda Ibn tymyyh, 'Abd al-Hādī ibn Ẓāfir al-Shahrī, Arab Diffusion Foundation, 1st edition, Beirut, 2013.
4. Alsh'ryyh al-'Arabīyah wa-al-muqārabāt altdāwlyyh, Ṣāliḥ ibn Ramaḍān, within the book The Ancient Literary Text from Poetics to Pragmatics, edited, coordinated and presented by Muhammad Mustafa Hassanein, Dar Kunooz al-Ma'rifa and Publishing, 1st edition, Amman, 2018.
5. Fnn al-khaṭābah, Arisṭū, translated by Abdul Rahman Badawi, House of General Cultural Affairs, Arab Horizons, 2nd edition, Baghdad, 1986.
6. Fnn al-shi'r, Arisṭū,, translated by Abdul Rahman Badawi, House of Culture, Beirut, 1973.
7. Fī Balāghat al-Ḥajjāj Naḥwa muqārabah blāghyyh ḥjājyyh li-taḥlīl al-khiṭābāt, Muḥammad Mashbāl, Dar Treasures of Knowledge for Publishing and Distribution, 1st edition, Amman, 2018.
8. Mabādi' altdāwlyyh, jywfry lytsh, translated by Abdelkader Qanini, Africa East, Casablanca, 2013.
9. Mushkilāt al-Ḥajjāj bi-wāsiṭat al'ytws min al-balāghah ilá taḥlīl al-khiṭāb, Dominique mnghynw, translated by Hassan Al-Moudin, within the Argumentative Analysis of Discourse, Dar Kunooz Al-Ma'rifa for Publishing and Distribution, 1st edition, Amman, 2016.
10. Mawsū'at al-balāghah, Tūmās awkwnwr Sulwān, translated by Nokhba, supervised and presented by Imad Abdel Latif, vol. 3, National Center for Translation, 1st edition, Cairo, 2016.
11. Nẓryyh al-Ḥajjāj fī al-lughah, Shukrī al-Mabkhūt, among the most important theories of Al-Hajjaj in Western traditions from Aristotle to today, supervised by Hammadi Samoud, Publications of the Faculty of Arts, Manouba, 1998.